

المنفعة

لحسين حسين النائي

المقدمة

لطاما ربط الناس وحتى بعض المتخصصين المنفعة بالانانية والبراغماتية أو حتى النرجسية. لكن الواقع يقول أن جميع الكائنات الحية هي كائنات منفعية بالفطرة، ولا يمكن للكائن الحي مهما حاول أن يصبح غير نفعي. وعندما أقول منفعية لا أقصد المنفعة المادية المباشرة، والتي يظن الناس انها الشكل الأوحده للمنفعة، متناسين الانواع الأخرى الكثيرة جدا للمنفعة، كالعاطفية والاجتماعية والضميرية والارضائية... الخ. وكل فعل يقوم به الكائن الحي يكون لاعتقاد هذا الكائن أنه سيقدم له منفعة من نوع ما. وقد يكتشف الكائن أن هذا الفعل اضره. لكن بلا شك أن لحظة القيام بالفعل كان يعتقد بفرصة للمنفعة. قد يسألني شخص ويقول أين المنفعة في الانتحار واين هي في التضحية بسبيل شيء تحبه وتعزه واين المنفعة في التبرع للمحتاجين او التكفل بالايتم وغيرها من الافعال التي تبدو للوهلة الاولى أنها غير نفعية. وأرد عليه بأني سأجيب عن تلك التساؤلات في هذا المقال واشرح المنطق وراء هذه الافعال بشكل يمكنك أنت من إيجاد المنفعة بنفسك. وسوف نتناول المنفعة من عدة جوانب كالاخلاقية والاجتماعية والدينية وغيرها، في فصول هذا المقال والذي سيكون الإنسان به مرتبط الفرس ، لكن يمكن تطبيق ذات الخطوط العريضة على بقية الكائنات الحية.

المنفعة المادية

هي أشهر أنواع المنفعة، ومن أكثرها انتشاراً، وأسهلها ملاحظة. إذ انها ببساطة، فعل يُفعل لأجل منفعة ظاهرة وواضحة كذهابك للعمل كل يوم او كصيد الاسد الغزال، ومثل صانع محتوى يقدم محتوى للشهرة او لارسال رسالة يريد نشرها. ولأنها الاسهل ملاحظة يظن الناس انها الشكل الوحيد للمنفعة وبهذا التعريف الذي يختزل المنفعة بشكل واحد، سوف ترى افعالاً مثل العمل لساعات اضافية دون أجر، ممارسة هواية لا تدر عليك ديناراً واحداً، أو شرب السجائر والكحول المضرتين، افعالاً غير نفعية وهذه رؤية خاطئة اختزالية بشكل مغل.

المنفعة والنسبية

المنفعة حالها حال كل ما حولنا نسبيةً، أي تختلف من شخص لآخر ومن فكرٍ لفكرٍ. فقد يرى شخص ما أن فعل فلان غير نفعي ومضر ، بينما يظن القائم بالفعل عكس هذا. وذلك لنسبية المنفعة بينهما. فما تراه غير مجدٍ، يراه غيرك كنزٌ يجب حصده. فلكل جنس من الكائنات أنواع عديدة للمنفعة ولكل فرد ترتيبه لهذه المنافع بحسب حياته وتجاربه وآرائه. وإذا اعتبرت المنفعة شيء مطلق وثابت، غدت عديد الافعال عديمة الجدوى، ومضيعة للوقت ورميٌ للجهد بالشط.

المنفعة الاجتماعية والارضائية

وضعتُ هذين النوعين من المنافع بفصلٍ واحد، لتشابههما معا في عديد الحالات. ولنفهم جيداً لابد لنا من مثال، إذا قام شخص بعمل وليمة لأي سبب كانت نجد بعض الاشخاص يبالغون بالكرم والبذخ، بشكل يفوق قدرتهم المالية بشكل كبير. فقد تراه يفعل فعل غير منفعي، أما الواقع فهو عكس هذا، فقد يكون سبب هذا هو لارضاء شعور داخلي لديه فتكون المنفعة من هذه المبالغة منفعة داخلية كرجل يسير بالليل وحده فيجد شخصا يتحرش بفتاة لا يعرفها فيهرع لنجدتها فأغلب الظن ان فعله هذا ناتج عن منفعة ارضائية لشعور داخلي، والمنافع الارضائية أحد أشهر المنافع البشرية وأكثر تعقيداً وتشابكاً. وقد يكون سبب الكرم هذا منفعة اجتماعية، فقد يكون كرمه هذا للظهور بمظهر الكريم أمام مجتمعه وهكذا حالات تكون مشهورة في البيئات التي تمتدح الكريم والعطاء مثل المجتمعات العربية. والأمثلة على هذين المنفعتين لا تعد ولا تحصى.

المنفعة والأخلاق

الأخلاق ظاهرة اجتماعية وبيئية مرتبطة ارتباط وثيق بالتاريخ البشري. وبالرغم من عدم ولادتنا بها، فالطفل لا يعلم أن الكذب سيء والسرقة ممنوعة، إلا من خلال مجتمعه وبيئته، إلا أنها باقية مع البشر وتتغير مع تغيرهم على مدار الازمان. وأصل الأخلاق نفعي، فهي تستند على عدة أنواع من المنافع البشرية،

الأولى المنفعة الوقائية، فأنت لا تحب أن يُكذب عليك لما سيقع عليك من ضرر وجارك لا يحب أن يُكذب عليه كذلك، فينتج نوع من انواع التابوهات لمنع الضرر بالتبادل. وصحيح أن الكذب قد يحقق لك منفعة في أماكن وظروف معينة، لكن الكائنات الحية بطبعها ومنها الانسان تخشى الضرر أكثر من حبها للنفع، فتجنب الضرر منفعة لها مكانة عالية عند اغلب الكائنات الحية. غير انها بالتأكليد نسبية. فيختلف ترتيب أهميتها من جنسٍ لجنس ومن فردٍ لآخر. والمنفعة الوقائية ليست الوحيدة التي تقف خلف الاخلاق البشرية ونشأتها وتغيرها، بل تقف خلف الاخلاق انواع عديدة من المنافع كالمنفعة العاطفية والمنفعة المادية التي تنتج اخلاق خاصة بها وغيرها الكثير. وفي بعض الاحيان، ترى جماعة تتمسك بخُلُقٍ او اخلاق معينة تبدو مضرّة للجماعة ذاتها او انها تقيدهم او تحرمهم من منافع كثيرة، لكنهم يلتزمون بها شديد الالتزام، ويربون اطفالهم على اتباع هذه الأخلاق، ويعاقبونهم بحزم إذا لم يلتزموا بها، ولهذه الحالة خفايا منفعية تبرز لنا أهمية ترتيب المنافع المختلف اختلاف كبير باختلاف الناس. فقد يكون الالتزام لمنفعة عاطفية، إذ يرون ضرورة بالحفاظ على ما وصلهم من اجدادهم وآبائهم، كحفاظنا على الآثار والفنون القديمة. فيحتفظون بها حتى وإن وجدت اضرار ومنافع مفقودة، إثر احتفاظهم بها. أو قد للخُلُق منفعة إنتمائية، إذ أنهم بالتزامهم بهذه الاخلاق يقوون روح الانتماء لهذه الجماعة، ويشعرون أنهم جزء من هذا القوم. ولكل خُلُق آلاف الانواع المنفعة للاحتفاظ به باختلاف الناس والمجتمعات.

المنفعة والأديان

للأديان والاعتقادات حضورٌ في مختلف جوانب الحياة الإنسانية. وسوف نختصر الكلام عنها اليوم بجانب واحد، وهو الجانب المنفعي من الدين. استخدمت الأديان منفعية الإنسان خير استخدام، على مدار الازمان. ومن المنافع المستخدمة بكثرة في الأديان، هي الوقاية والمكافأة، فالأولى تعمل على منع المُعتقِد بالدين، من مخالفة الفروض والاورام، كالتهديد بدخول الجحيم والعواقف الدنيوية وغيرها، والثانية، تغريه بالمكافآت كالجنة والتوفيق الالهي والرزق وغيرها. ومن المنافع التي احترفت الاديان استخدامها احسن احتراف، هي منفعة الامل، فالاديان تعطي لمعتنقها دفعات من الأمل، يصعب على غير غير المتدين أو

الملحد الحصول عليها، ولهذا ولغيرها من الاسباب يتمسك الناس بها.وقد يكون للدين منافع انتمائية، وبما ان الأديان هي افكار مُعممة على عدد كبير من الناس، تجد تغيير في المنافع المقدمة لكل شخص حسب ما يريد وما يبتغي، فتجد شخصان يؤديان ذات الطقس الديني ولهما غرضان مختلفان تمام الاختلاف عن الآخر. وللنسبية دور كبير بالاديان.

المنفعة والإدمان

لكل عقلٍ من عقولنا سلم منافع، ترتيب يبدأ بأقل المنافع أهمية ويصعد إلى الأهم، وكلما زادت رتبة منفعة ما لدى الفرد، زاد اهتمامه بإشباعها. والإدمان يلعب على هذه الفكرة. ترفع المادة الادمانه ترتيب المنفعة التي تقدمها إلى مستويات عالية جداً، تجعل الفرد يُضحى بالكثير والكثير لأجله، كالتضحية بصحته او ماله او مزاجه او تعريض نفسه للمخاطر القانونية فقط لاشباعها.فمدمن السجائر مثالا، تكون المنفعة التي يقدمها له التدخين، وهي غالباً الراحة النفسية المصطنعة أو الاسترخاء والتنفيس وغير ذلك، ذات ترتيب عالي في سلم المنافع، فيدخل وإن كان مدركاً لاضرارها. وكذا كل مدمن، كمدمن المشروبات الغازية والاكل غير الصحي الكثير، إذ أن ترتيب المنفعة المقدمة من هذه المشروبات والاكلات، وهي بالغالب طعمها اللذيذ وسكرها الكثير، مرتفع، فيميل الفرد لاشباعها وإن ادرك انها تضره. فمن افضل طرق العلاج من الادمان هو إعادة ترتيب المنافع لطبيعته، قبل الادمان، ويتم هذا بطرق كثيرة، لن نتطرق لها، لانها خارج موضوع المقال. فحبذا لو يكون المدمن او المعالج له مدرك لترتيب المنافع وكيفية عملها من فرد لفرد.

الخاتمة

لم أشأ ولم أرغب بكتابة كتابٍ ضخيم، عن هذا الموضوع، رغم قدرتي على حشو المقال بكثير الحروف والامثلة ليغدو مؤلفا ضخما، والسبب الرئيس لهذا، أنني أرى المنفعة شيء بديهي يمكن لأي باحث عن الحقيقة واي ناظر بموضوعية دون تحيز أن يراها جلية واضحة، فقررت الاكتفاء بعدد محدود من الكلمات

والامثلة، وكتابة الخطوط العريضة بمقال قصير جدا يمكن قراءته بدقائق قليل،
فيمكنك إذا فهمتَ هذا المقال أن تفهم المنفعة التي تدفع المنتحر للانتحار، وتفهم
المنفعة في التبرعات والاعمال الانسانية والتضحية بسبيل الوطن وغيرها.
والسبب الذي يجعل رؤية المنفعة معقدة في الإنسان لبعض الناس، هو أن
الانسان وبصفته الكائن الاعلى بسلم التطور (إذا اعتبرنا التطور سلم لا شجرة
بناءً قوة البقاء والتكيف والتغيير) يملك تعقيداً فكرياً واجتماعياً وعاطفياً اكبر
بكثير من بقية الكائنات، فتُرى بعض افعاله على انها غير منفعية، وأنه كائن
مختلف عن بقية الأحياء، وفي هذا قصر نظر غير واقعي.

تمت